عدن

والمطامع البرتغالية في القرن

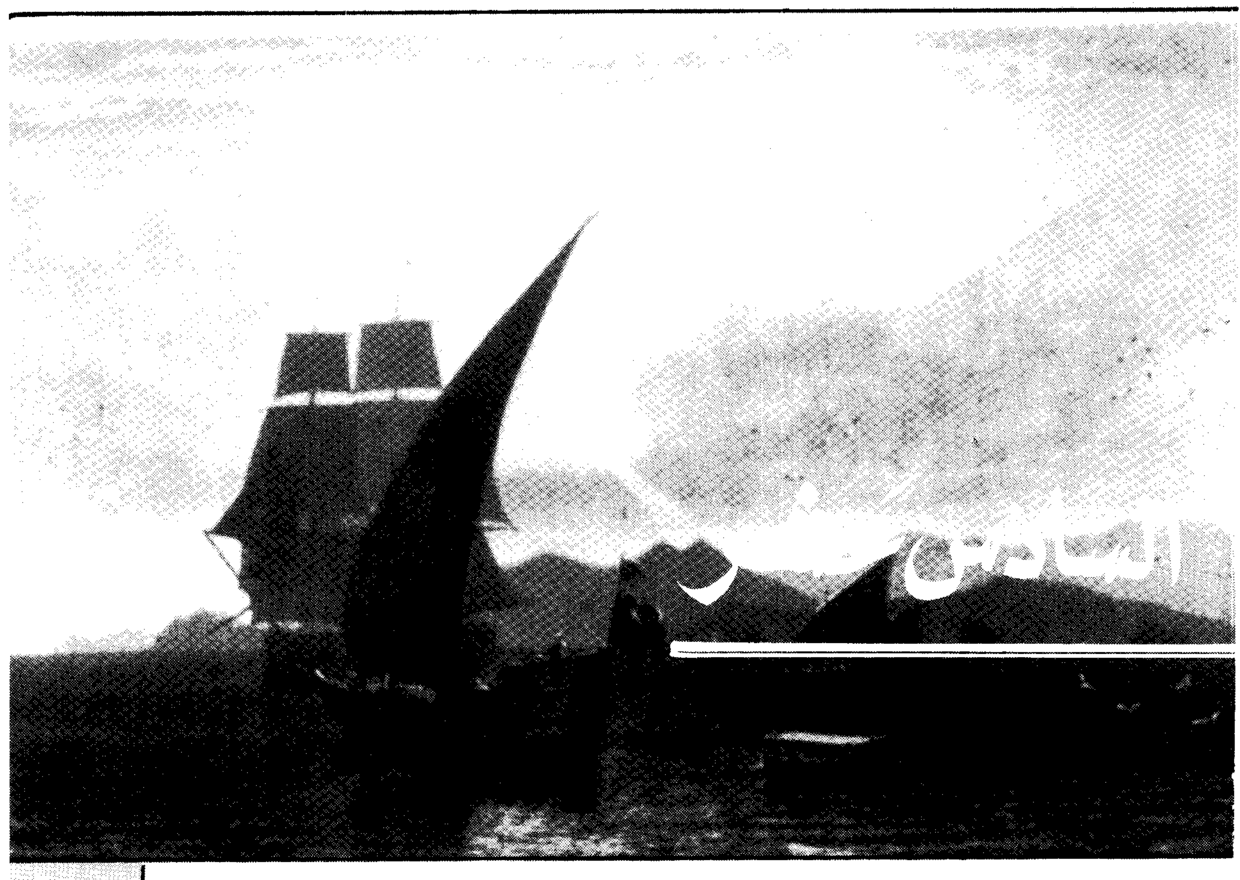
بقلم : محمد عبدالحسين عبود الحلي ـ العراق

كان نجاح الاسبان والبرتغاليين فى حروبهم الصليبية التى شنوها على العرب المسلمين فى الاندلس خلال القرن الخامس عشر والتى انتهت بتصفية معاقلهم فى تلك البلاد حافزا لمتابعة حربهم الصليبية ضد المسلمين لا فى الاندلس وشواطىء المغرب العربى فحسب بل فى معاقلهم البعيدة فى الشرق. لتنفيذ مخططهم الصليبي الذى كان يهدف الى الوصول لمملكة القديس يوحنا المسيحية فى شرق افريقيا ويعنون بها الحبشة ـ للتعاون معها فى شن حرب على المسلمين فى تلك المناطق وطعنهم من حيث لا يتوقعون[١] .

ويمكن القول ان البرتغال كانت من اوائل الدول الاوروبية التى مخرت سفنها عباب البحر الاحمر والخليج العربى فى طريقها الى الهند موطن الثراء مستهدفين القضاء على توسط المسلمين والبنادقة فى نقل التجارة منطلقين الى تأسيس امبراطورية استعمارية فيما وراء البحار مدركين ان ذلك لا يتم الا بالقضاء على النفوذ الاسلامى فى البحار الشرقية[٢] .



ومنذ ان تم لهم اكتشاف الطريق الجديد الى الهند عبر رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٢م فقد عززوا احتكارهم لتجارة الشرق لسيطرتهم على العديد من الجزر الواقعة على امتداد شواطىء افريقيا واسيا وخاصة بعد ان برزت لهم اهمية ميناء عدن كقاعدة هامة على الطريق البحرى الى الهند، وافضل نقطة استراتيجية يمكن من خلالها السيطرة على حركة المرور فى البحر الاحمر[٣] .



تعرضت عدن خلال النصف الاول من القرن السادس عشر لكثير من الضغوط الاستعمارية البرتغالية التى استهدفت احتلالها والسيطرة عليها لما كانت تتمتع به من اهمية استراتيجية وتجارية واصبح امر السيطرة على عدن وانهاء دورها جزءا من مخططات السياسة البرتغالية المقبلة[٤] والظاهران البحر الاحمر كان اكثر اغراء للبرتغاليين لانه يؤدى الى الاماكن الاسلامية المقدسة ولتثبيط همة المقاومة الاسلامية فى الهند ومن جهة اخرى كان البرتغاليون يريدون ان يقطعوا سبيل الاتصال ما بين مسلمى الهند ودولة المماليك فى مصر لاسيما وان المماليك لحقهم ضرر اقتصادى نتيجة اكتشاف رأس الرجاء الصالح[٥] .

ادرك المصريون خطورة تسرب النفوذ البرتغالي فى الهند وفى نفس الوقت كانت تراودهم نفس الاطماع التى كانت تراود البرتغاليين فى احتلال عدن وشعروا بالمنافسة البرتغالية على تجارتهم[٦] . وخاصة بعد وصول البرتغاليين الى عدن فى سنة ١٥٠٣م واستمروا يترددون على المدينة يدرسون ويحللون احوالها السياسية والاقتصادية والعسكرية . وفى سنة ١٥٠٤م وصلت الى ميناء عدن عدة سفن حربية برتغالية واسرت سفينة عربية وقتل البرتغاليون بحارتها بطريقة قاسية[٧] وفى سنة ١٥٠٥م تمكن البرتغاليون من تثبيت اقدامهم على سواحل الهند حينما اسسوا بها حكومة يرأسها نائب الملك (دلميدا) فى سنة ١٥٠٥[٨] .

وفى سنة ١٥٠٦ نجح البوكيرك فى الاستيلاء على جزر كوريا موريا وجزر هرمز وبعض موانىء الخليج العربى مما جعل

الملك (عمانوئيل) يسند الى البوكيرك منصب نائب الملك فى الهند سنة ١٥٠٩[٩] وصارت الامدادات ترد عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين اسرا ونهبا ويأخذون كل سفينة غصبا الى ان كثر ضررهم على المسلمين وعم اذاهم على المسافرين[١٠].

ويقول ابن الديبع عن اعمالهم تلك قويت شوكة المفسدين فى (قطع) طرق المسلمين فى البحر بطريق الهند وهرمز وكان اعظمهم ضررا طائفة لافرنج (البرتغاليون) فانهم فعلوا بالمسلمين الافاعيل واخذوا كل سفينة غصبا واستحلوا دماء المسلمين واموالهم ونساءهم واولادهم وفعلوا المنكر عيانا واستمروا على ذلك زمانا فبعث اهل مدينة عدن الخبر الى السلطان (قانصوه الغورى) يستغيثون على الفرنج[١١] كذلك بعث مظفر شاه سلطان كجرات الى السلطان يطلب المساعدة منه ويطلب العدد والالات والمدافع لدفع ضرر الافرنج ولم يكن.. اهل الهند اذ ذاك يعرفون المدافع والبندقيات يومئذ)[١٢].

فاراد المماليك الدخول فى معركة حاسمة مع البرتغاليين لاثبات وجودهم فى البحر الاحمر والمحيط الهندى وادرك المصريون انه لابد لهم من مراكز تجارية وعسكرية لتعزيز حملاتهم المنتظرة مع خصومهم البرتغاليين والمركز الذى كانوا يرمقونه هو (عدن) وخاصة بعد تسرب النفوذ البرتغالي اليه[١٣].

وضع المماليك خطتهم فى مواجهة البرتغاليين على اساس يهدف الى القضاء على المراكز البرتغالية فى الهند، باعتبار ان القضاء على تلك المراكز سيؤدى الى تهاوى المواقع البرتغالية الاخرى وقد وضعت الخطة موضع التنفيذ بالتعاون مع الامراء الهنود واستطاع الاسطول المصرى من احراز انتصار جزئى على البرتغاليين فى عام ١٥٠٨م وظلت الحرب سجالا بين الطرفين الا ان المصريين لم يكونوا فى مستوى البرتغاليين من حيث القوة العسكرية والدراية البحرية، حيث تمكنت القوات البرتغالية من ان تحقق انتصارا بحريا هاما على المماليك فى معركة (ديو) المشهورة عام ١٥٠٩ ونقل البوكيرك مقره من (كنانور) على الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الهند الى (جوا) على ساحل (ملبار) المطل على بحر العرب لينظم القرصنة البرتغالية ضد الملاحة التجارية العربية[١٤]. فراح البرتغاليون يطاردون السفن العربية فى المياه الافريقية وجعلوها غير قادرة حتى على الحركة فى الخلجان الافريقية الصغرى. وكان نصيب السفن اليمنية الجنوبية من تلك المطاردة العنيفة اكثر من نصيب السفن العربية الاخرى[١٥].

واستمر البرتغاليون باخضاع السواحل الهندية الغربية فبأنقضاء سنة ١٥١٠م كانوا قد احتلوا اقليم (كوهين) واقليم (كاليكوت) بعد ان نهبوا واحرقوا المدينة واقليم (جوا) التى كانت تحكمها اسرة هندية مسلمة وقد قتل البرتغاليون جماعة من المسلمين كانت تؤدى صلاة الجمعة فى جامع (جوا) وابتدأوا يعدون العدة لغزو (عدن) التى كانت خاضعة للدولة الطاهرية اليمنية

على عهد الملك الظافر عامر بن عبدالوهاب (الطاهرى) وكان حاكم عدن هو (مرجان الطاهرى) وهو نائب بنى طاهر[١٦] .

وفى سنة ١٥١٣م عاود البرتغاليون الكرة بادئين بالبحر الاحمر ولكنهم كانوا يصطدمون دائما بالبحرية المصرية وفى تلك الاثناء حدث اتصال بين الحبشة والبرتغال بهدف ايجاد جبهة متحدة ضد المسلمين وبخاصة ضد المماليك[١٧] .

فتحركت من ميناء (جوا) الهندية عشرون سفينة برتغالية وهندية تحمل ألفا وخمسمائة جندى برتغالي وثمانمائة جندى تحت قيادة البوكيرك وهاجمت تلك القوة عدن ولكنها وجدت مقاومة عنيدة[١٨] . ووجدوا ان مرجان الطاهرى قد ركز دفاعه على طول السور المواجه لشاطىء (صبرة) واقام المدافعين على الحصون والابراج والاسوار، ومضى يومان دون ان تعرف عدن النوم وصمم اهلها على الدفاع واختلط اهل عدن بالبرتغاليين والتحموا معهم فى معركة هائلة، فاضطر البوكيرك الى الانسحاب وامر جنوده بالعودة الى السفن وكانت مذبحة من اعظم ما عرفت شواطىء عدن، سالت فيها دماء البرتغاليين بغزارة[١٩] وعند خروج البوكيرك من ميناء عدن حاول اطفاء نار الهزيمة المتأججة فى صدره باحراق اربع سفن عربية كانت راسية فى ميناء عدن[٢٠] .

ويصف ابن الديبع ما فعله البرتغاليون بعدن واهلها حيث يقول (وضربوا المدافع ونشروا الاعلام وفتحوا الحرب على مدينة عدن ولم يقعوا على طائل لتحصين البلاد وخبرة اهل عدن بالحرب فضربوا المدافع على عدن وصدعوا بعض البيوت وقتلوا جماعة فى الاسواق واحرقوا ما جاورهم من المراكب بالساحل ثم نزلوا الى الساحل ليلا وقد استعد اهل عدن بسلاحهم ورجع الافرنج بالجرحى منهم الى مراكبهم فمات اكثرهم وانقطع رجاهم على المدينة وكانت مدافع المسلمين تتلف لهم كل يوم سفينتين او ثلاثة فابتعدوا بعد ذلك الى حيث لا تصلهم مدافع المسلمين ثم توجهوا الى طرق الهند مكسورين مخذولين مدحورين[٢١] .

لقد كان انتصار أهل عدن ضربة شديدة لهيبة البرتغاليين البحرية والعسكرية فى المنطقة اذ كانت هزيمتهم فى عدن اول هزيمة كبرى يمنون بها منذ انتصاراتهم المتلاحقة على حكام الاقاليم الصغيرة فى شرق افريقيا والهند .

ولكى يمسح البرتغاليون عار الهزيمة او يخففوا على الاقل وقعها فى نفوس الهنود والعرب راحوا يعززون من مراكزهم العسكرية والتجارية فى المنطقة تأكيدا لقوتهم ونفوذهم[٢٢] .

وعلى الرغم من ان السيطرة على التجارة الشرقية ومصادرها قد تمت لهم فان البرتغاليين كانوا يشعرون باهمية عدن فراحوا يعدون العدة للانتقام من عدن والعدنيين وكانت عيونهم طوال الوقت مفتوحة على ما كان يجرى فى عدن وفى المناطق المجاورة لها. وقد ازداد خطرهم بعد وفاة البوكيرك عام ١٥١٥ وتحالفوا مع الحبشة لاعلان الحرب المشتركة ضد المماليك فقاموا بهجوم على ميناء جدة التى اصبحت قاعدة المماليك فى البحر الاحمر[٢٣] .

وفى سنة ١٥١٦م وصلت الى عدن قطع من الاسطول المصرى بقيادة سليمان باشا الخادم بناء على رغبة السلطان (قانصوه الغورى) لاحتلال عدن، وتوالى وصول سفن الاسطول المصرى الى عدن إلى ان بلغ عدد قطعة سبعا وعشرين سفينة ولكن قلعة عدن صمدت امام هجمات المصريين فتراجع المصريون امام صمود العدنيين وبفضل المدد العسكرى الذى تلقاه الامير مرجان الطاهرى من تعز ومن الشحر ولكن تحصينات عدن العسكرية تعرضت لتخريب ليس بالهين، كما قتل جنود كثيرون من حاميتها من جراء الحملة المصرية[٢٤] .

ويقول النهروالى عن تلك المعركة (لقد رموا حصن المدينة بالمدافع ورموا اكثر دوره) ولم يقدروا على اخذه وخرج اهل عدن ووقعت معركة كبيرة جرح فيها سليمان باشا ثلاث جراحات ثم وقعت حروب اخرى وكانت الحرب سجالا فوصل من (تعز) اخو عامر بن عبدالوهاب بعسكره ودخل عدن فايس العسكر المصرى من اخذ عدن فاخذوا ما وجدوا حول عدن من المراكب وركبوا سفائنهم[٢٥] .

وفى نفس العام تقدم البرتغاليون بقيادة (سواريز) من الممتلكات البرتغالية فى الهند باسطول حربى الى البحر الاحمر يتكون من سبع وعشرين سفينة تحمل الفا ومائتى برتغالي وستمائة هندى فاتجه الى عدن فوجد مواقعها الدفاعية قد تخربت بعد المحاولات المصرية لغزوها ولما رأي الامير مرجان الطاهرى انه عاجز عن مقاومة البرتغاليين اغتبط القائد البرتغالي لذلك ولم يشك فى نوايا الامير مرجان فى السماح باتخاذ عدن قاعدة للبرتغاليين لحين عودته من مطاردة الاسطول المصرى ولما عاد (سواريز) لعدن وجد ان الامير مرجان قد اغتنم فرصة انشغال البرتغاليين مع المصريين فجدد تحصين عدن[٢٦]واستمرت الحرب عنيفة بين المصريين وبين الطاهريين من جهة وبين المصريين والبرتغاليين من جهة اخرى، مما اضعف قوة المماليك وجعلهم يتراجعون امام العثمانيين نحو البحر الاحمر حتى تمكنوا من دخول مصر سنة ١٥١٧[٢٧] .

هنا بدأت صفحة طويلة من الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين وبدأت الدولة العثمانية تتجه الى البحار الشرقية لانها كانت تشكل بالنسبة لها منطقة استراتيجية هامة لكونها منطقة متصلة بحدود دولتها الجنوبية[٢٨] وحاول كل طرف الاستيلاء على جنوب اليمن (عدن) ليفرض كلمته على الشرق وينفرد باستغلال موارده[٢٩] .

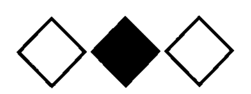
فالموقع الاستراتيجى لليمن من العوامل التى برزت اهميتها فى تحقيق الاهداف العثمانية الدفاعية والتوسعية. فلقد جعلها هذا الموقع الممتاز وتلك الحدود التى تطوق جنوب الجزيرة العربية منطقة دفاع هامة عن حدود الامبراطورية العثمانية فى الجنوب، فسيطرتهم على اليمن جعلتهم يحافظون على سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة فى الحجاز والتحكم فى البحرين (الاحمر والعربى) وامتلاك موطىء قدم صالح للوثوب على البحرية البرتغالية فى البحار الشرقية وتطويق اعدائهم الصفويين فى ايران من الجنوب وتحقيق احلامهم بمد سيطرتهم شرقا الى اقاصى العالم الاسلامى[٣٠] .

وازداد التنافس حدة فى البحر الاحمر خاصة والبحار الشرقية عامة بعد ان اصبح العثمانيون ورثة الحكم المملوكي بكل مشكلاته وظهرت روح التنافس واضحة من خلال ما اعلنه حكام كل من الدولتين من تصريحات واضحة فقد اكد الملك البرتغالى (عمانوئيل الاول) انه أسد غينيا والفتوحات والملاحة والتجارة فى الحبشة والجزيرة العربية وايران والهند «كما اعلن السلطان (سليم الاول) بعد الاحتلال العثماني لمصر سنة ١٥١٧ : (والان فان كافة مناطق مصر وحلب وسورية ومدينة القاهرة ومصر العليا والحبشة واليمن والحجاز ومدن مكة والمدينة والقدس وجميع الاراضى حتى حدود تونس قد اضيفت الى الامبراطورية العثمانية)[٣١] .

على ان البرتغاليين واصلوا جهودهم لتنفيذ خططهم فى البحر الاحمر فقد هاجموا ميناء جدة سنة ١٥٢٠م وفى هذه السنة مات الملك عمانوئيل، وتوفى ايضا الامير مرجان الطاهرى حاكم عدن واستمر البرتغاليون بالاغارة على المناطق العربية . ففى سنة ١٥٢١م قاموا بهجوم على عدن وكذلك قاموا بمهاجمة ميناء الشحر اليمنى عام ١٥٢٣م ثم ضربوا عدن بالمدافع عام ١٥٢٥ وهم فى طريقهم الى ميناء (مصوع) ولكن لم يتحقق للبرتغاليين اى هدف فى ذلك الحين[٣٢] .

ولهذا فضل البرتغاليون اخيرا عقد معاهدة جديدة مع حاكم عدن عام ١٥٣٠ ونصت هذه المعاهدة على اعتراف عدن بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الجزية السنوية لهم وذلك نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة لسكان عدن ولكن بشرط عدم توجههم الى جدة ولكي يضمن البرتغاليون تنفيذ هذه المعاهدة تركوا فى ميناء عدن احدى سفنهم وقوة قوامها اربعون برتغاليا ليشرفوا على الميناء وعلى ايراداته المالية[٣٣]

وقد اثارت هذه المعاهدة غضب اليمنيين على حاكم عدن، غير ان حجته تركزت دائما فى حرصه على عدم تعرض عدن للاحتلال الكامل من قبل البرتغاليين المتفوقين حربيا من جهة وفى خشية هجوم العثمانيين عليها من داخل اليمن او من ناحية البحر من جهة اخرى[٣٤] .





١ ـ وليد محمد جرادات : الاهمية الاستراتيجية للبحر الاحمر بين الماضى والحاضر ط ١ ، دار الثقافة ، ١٩٨٦ ، ص ٨٩ .

٢ ـ د . طارق نافع الحمدانى : دور مصر واليمن فى مقاومة الغزو البرتغالي للبحر الاحمر والمحيط الهندى فى اوائل القرن السادس عشر مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد الثانى عشر، بغداد ، ١٩٨٣، ص ٢١٨ .

٣ ـ حمدى لطفى : الثورة جنوب اليمن ، ص٦٨ ، كذلك انظر جرادات مصدر سابق ، ص ٩٥ .

٤ ـ الحمدانى : عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين خلال النصف الاول من القرن السادس عشر، مجلة دراسات الخليج العربى، العدد الثانى والاربعون، السنة الحادية عشرة، ١٩٨٥، ص ١٦٩ .

٥ ـ د . مصطفى العقاد : التيارات السياسة فى الخليج العربى، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص١٤ .

٦ ـ محمد عبدالقادر بومطرف : الشهداء السبعة، دار الحرية للطباعة، بغداد ، ١٩٧٤، ص٥٠ .

٧ ـ حمزة على لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة القاهرة، ١٩٦٠، ص١١٥ .

٨ ـ العقاد : مصدر سابق، ص١٦ .

٩ ـ نفس المصدر والصفحة. كذلك لقمان : مصدر سابق، ص١٠٩

١٠ ـ قطب الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٧، ١٨٥ .

١١ ـ عبدالرحمن بن على بن محمد بن الديبع : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى اخبار زبيد، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، الكويت، ١٩٨٣، ص٢٠٣ .

١٢ ـ النهروالى : مصدر سابق، ص١٩

١٣ ـ بومطرف/ مصدر سابق، ص٥٠

١٤ ـ العقاد : مصدر سابق، ص١٧

١٥ ـ بومطرف : مصدر سابق، ص٤٧

١٦ ـ نفس المصدر والصفحة
١٧ ـ العقاد : مصدر سابق ص١٨
١٨ ـ بومطرف : مصدر سابق، ص٥١
١٩ ـ لقمان : معارك حاسمة من تاريخ اليمن، ط١ ، مركز الدراسات اليمنية صنعاء، ١٩٧٨، ص١١٢ ..
٢٠ ـ بومطرف : مصدر سابق ، ص٥١
٢١ ـ ابن الديبع : مصدر سابق، ص٢٦٤
٢٢ ـ بومطرف : مصدر سابق، ص٥٢
٢٣ ـ د. فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر (١٨٣٩ ـ ١٩١٨) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٤٦
٢٤ ـ بومطرف : مصدر سابق، ص٥٤
٢٥ ـ النهروالي : مصدر سابق : ص٢٥
٢٦ ـ لقمان : تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ، ص١٢٣ ، كذلك انظر لقمان : معارك حاسمة من تاريخ اليمن ، ص١٢٣.
٢٧ ـ عبدالوهاب القيسي : موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية، مجلة الخليج العربى، م١٢ ، العدد الاول، مركز دراسات الخليج العربى، البصرة ١٩٨٠ ، ص٤٥ .
٢٨ ـ مصطفى عقيل الخطيب : التنافس الدولى فى الخليج العربى (١٦٢٢ ـ ١٧٦٣) بيروت، ١٩٨١ ، ص٢٨ .
٢٩ ـ جلال يحيى : العالم العربى الحديث، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦ ، ص٨٢ ،
٣٠ ـ فاروق عثمان اباظة : الحكم العثمانى فى اليمن (١٨٧٢ ـ ١٩١٨) القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص١٢ .
٣١ ـ القيسى : مصدر سابق، ص٤٧
٣٢ ـ اباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر، ص٤٧
٣٣ ـ نفس المصدر : ص٤٨
٣٤ ـ نفس المصدر : والصفحة .

